وادي الظلال

الجزء الأول

الفصل السادس

ما كانت الأزمات والقلاقل لتهدأ في فلسطين؛ وفي العالم الواسع حولها كانت معارك الحرب العالمية الثانية تحصد ملايين الضحايا. وفي ذات يـوم وقـد فقـد البترول من البلد، واشتعلت أسعار المواد الغذائية، ونفذ الرذاذ من المؤنة، وأسقط في يد الوالد، ونال السغب أفلاذ كبده، وإذا بالباب يدق، وبـشيخ يحمـل سـلتين كبيرتين ترافقه ابنته ملتثمة بغطاء أبيض. وفهمت كل شيء ومحتويـات الـسلتين تفرغ، وأحسست بخناجر مسمومة تطعنني وأنا أنظر إلى والدتي الواجمـة وقـد شحب وجهها وزمت شفتيها. وما كاد الباب يغلق حتى انفجرت دموعي وهتفت:

- أقسم إني لن أذوق شيئا ولو متّ جوعا. هذا إحسان!

وأجابني والدي مغيظا:

- إن الشيخ صديقي، ولقد عطفت على أهل بيته وعلتهم حين كـان معـتقلا، وهو لا ينسى فضلي. واليوم عاد ليرد بعضا من جميلي، فما هذه الكبرياء؟

- وصلنا إلى الدرجة التي يحسن بها علينا!

وانحازت رجاء إلي، وراحت تبكي لبكائي بغير أن تفهم من الأمـر شـيئا. ووجم باقي إخوتي مترددين وهم يرمقون الطعام بلهفة، فـسارع والـدي لحـسم الموقف والتقط بعض التمر وأمرهم بصرامة:

- هيا تقدموا! وأخذ يوزع التمر علينا وأنا واقفة في مكاني آبـى أن أطيعـه ورجاء تلازمني، وصاح بي:

- كفى لا تكوني سخيفة. ليس في هذا شيء يعيب. نحن نترافد والتكافل هـو السنة بيننا كأننا ذوي رحم!

- أن أعطي نعم، أما أن آخذ فلا. هذا أحقر من الإستدانة نفسها!

ولا أدري كيف تفوهت بهذه الكلمة، كنت منفعلة وخرجت من بين شفتي دون تفكير، وساد الصمت، ونظر إلي والدي مقطبا ولم يجب، فانفلت إلى غرفة النـوم وأكببت على سريري وأنا أنتحب حتى وهنت مني القوى، ورجاء تبكـي معـي. ونمنا، نحن الاثنتان، جنبا إلى جنب متعانقتين ذابلتين بعد أن روينا الوسـادة مـن دمعنا!

وسمعت نأمة فوق رأسي، وأتاني صوت أمي توقظني وأنا في استغراقي:

- سلمى أفيقي. إنك لست أشد كبرياء مني، قومي يا بنية، فلن تحتملي أكثـر مما احتملت. قومي لأجل رجاء إن لم يكن لأجلك. لقد هيأت لكم طعامـا طيبـا، دجاج وأرز وفاكهة وحلوى. والكل ينتظرونك.

- وتململت على فراشي وقد استبد بي الجوع وهصرت خـصري الـضامر وأجبت بطرف مغرورق:

- لاأشتهي، أقسمت لاأذوق منه.

- لا قسم على طعام. لا تكوني عنيدة!

- لتذهب رجاء، أما أنا فلا.

وأجابت رجاء: كلا، لن أذهب بدونك.

فقلت بعد لأي من الإصرار:

- سأذهب لكنني مصممة أن لا أذوق سوى الخبز والماء. وبدا أن والدتي لن تتزحزح رغم لهجتها الملاطفة حتى نذهب معها.

وأردفت رجاء:

- وأنا أيضا لن أذوق سوى الخبز والماء.

وأخذتنا والدتي كلا بيد:

- تعالا سنتحادث هناك.

ودخلنا الغرفة وأمي تقول:

- إنهما تصران على أن لا تذوقا سوى الخبز والماء. فأجاب والدي بـصوت هادئ متجاوزا ما بدر مني:

- سلمى تعالي. لا تكوني قدوة سيئة لأختك. إجلسي هنا بجـانبي. إذا كنـت تفضلين الخبز على باقي الطعام لأسباب سخيفة فأنا أخبرك بأن هذا لم يدفع ثمنه، والبائع يعطينيه متبرما، بينما هذا دفع ثمنه من قبل وواهبه يقدمه محبة وعرفانـا بالجميل، فأيهما أفضل؟

وسألته وقد خفّ ما بي:

- اقسم لي أن هذا صحيح وليس من باب الكذب على المرأة حلال.

ويضحك الجميع، وأضحك أنا وجفني مترع، ويكاد عبد الرحمن يشرق بكوب الماء، ووالدي يقول:

- "ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم". ولكن بشرفي وإيماني كرجل مـسلم أن هذا صحيح!

وتعود ذاكرتي القهقرى إلى زمن أسبق. كانت انتصارات المحور في أوروبا وحوض المتوسط قد زعزعت هيبة البريطانيين، وأنعشت الأمـل فـي النفـوس بالتحرر من قهرهم. وتواردت أخبار تمرد حكومة رشيد عالي الكيلاني في بغـداد لتزيد من قلق سلطة الانتداب، التي هادنت الوطنيين في مطلع الحرب فأفرجت عن بعضهم من سجونها وأعادت بعضهم الآخر من المنافي لكسب ودهم، وتدفعها إلى معاودة التنكيل بهم. وهكذا شنت حملة اعتقالات واسعة طالت من اشتبه بمشاركته النشطة في ثورة عام 36 أو عرفت عنه شدة مناوأته للاحتلال. وفي ذات يوم وقد منع التجول والطلقات تدوي في الخارج، جاءت قوة من ذوي الطاسات للتفتـيش. وانتصب الجميع بتحفز يراقبون الإجراءات التعسفية وعيونهم تشتعل شررا. قلـب الجنود الأثاث، وفتحوا الخزائن والأدراج وبعثروا محتوياتها، وحطمـوا الأوانـي منقبين عن الأسلحة فلم يعثروا لها على أثر، وقبل مغادرتهم ساقوا والدي وعبـد الرحمن إلى التحقيق، وما أفادت استغاثة والدتي ولا نحيبها. وبلغ السيل الزبـى، وراح الصغار يعولون ويتشبثون بوالدي وأخي.. وهرعت أنا إلى الباب الخارجي فأقفلته وحاولت أن أخفي المفتاح، فعاجلني جندي ولوى ذراعي واغتصبه منـي، ولما فشل سعيي اعترضت سبيله وقد أفرجت ذراعي أسد الباب، وانفجرت بكـل ما يحمله قلبي من قهر هاتفة يخنقني البكاء:

- لماذا تريدون أن تأخذوا أبي وأخي؟

كنت أحدق في عينيه مباشرة، ولم يفهم ما أقول، لكنه تردد برهـة قبـل أن ينحيني بجفاء مطرقاً إلى الأرض متجنباً النظر في وجهي. وصفع آخـر أديـب بقسوة إذ راح يمعن التشبث بأبيه، ثم دفع والدي وعبد الـرحمن إلـى الخـارج، ونخزني بكوعه عندما حاذاني ووجهه يطفح بتعبير شرس، وأفرج الجنود البـاب وخرجوا.

وما ذهبوا حتى غيضت دمعي، وجذبت أديب إلى ركن، وقلت محاولة إثـارة حماسته:

- لنتبعهم إلى ساحة الحرم، ونرى ماذا سيفعلون بهما! كنا نعلـم أن الرجـال يحشرون في ساح الحرم، وتملكتني رغبة طاغية في أن أشهد ما يحصل هناك.

- لكن التجول ممنوع، والجنود يطلقون النار على كل مـار فـي الطريـق!

وأجبته مهونة الأمر:

- إن باب الحرم على خطوات قليلة من منزلنا، فما هي إلا دقـائق معـدودة حتى نصبح هناك قبل أن يفطن إلينا أحد، وحتى لو رأونا فلن يطلقوا النار علـى صغار، وان فعلوا فإننا نستشهد ونذهب إلى الجنة!

وأعجبته الفكرة، فسارعت إلى القول لأتغلب على ما تبقى من تردده:

- إخلع حذاءك واحمله حتى لا تسمع ماما وقع خطواتنا، وافتح الباب بحـذر.

وطرنا راكضين إلى باب سور الحرم القريب، لكن لما وصلنا وجدناه مغلقا. وكنا قد بدأنا مغامرتنا ولم نرغب بالتراجع عنها فهرعنا إلى الباب الأبعد خافقي الصدر نسير في طرقات خاوية يتردد صدى خطواتنا على الرتب. ووجدنا علـى البـاب جندياً مكلفا بحراسته يقف وقد أدار ظهره لنا واستند إلى بندقية مشرعة الحربـة، فأجفلنا، لكننا تقدمنا على رؤوس أصابعنا يشجع أحدنا الآخر، وعزمنـا علـى أن نفاجئه ونركض أمامه فلا يقوى على إدراكنا. ولم تنجح خطتنا إذ أحس الجنـدي بنا، فالتفت وهو يهدر بكلمات لم نفهم معناها، وسد بحربتـه المـدخل، يعليهـا فنحاول الانزلاق من تحتها، ويدنيها فنحاول القفز من فوقها. وسر بالمداعبة التي أخرجته من سأم الوقوف الطويل في شارع خلا من أناسه ذلك اليوم، وانبـسطت

أساريره وانفرجت شفتاه الهدلتان عن ابتسامة كشراء، وبانت أسنانه الدافقة إلـى الأمام واحمر أنفه الذلف. ولما فطنت إلى أن الرجل يبتسم كما يفعل الناس زايلني الخوف، ورحت أدامج الكلمات وأعصر ذهني لأستدرج معناها بالإنجليزية، وتهلل وجهي وأنا أقول:

- مستر.. أنت رجل طيب جدا! دعنا نذهب لرؤية بابا وأخي وأشرت بيـدي لأعبر أنهم اعتقلوهم وأنهم ليسوا ثوارا، ولم يكن في بيتنا رصاصة واحدة.

ولا أدري ما هي الأخطاء اللغوية التي ارتكبتها أو الكلمات التـي اسـتبدلتها بالعربية أو الإشارات التي استخدمتها حتى ضحك الجندي ضـحكة رنانـة وراح يضج بلسان طلق ما لم أفهمه، ولكنني أدركت من هزة رأسـه معنـى الـرفض، فتملكني الحنق وقد فشلت أساليب اللين وقلت وأنا أتميز من الغيظ:

- أقول لك دعنا نذهب!

فما زادته حدتي إلا إغراقا في الضحك، فبلغ حنقي مبلغه، وهتفت بأديب:

- أهجم وعضه في ذراعه العارية، فأهرب أنا أولا ثم تلحقني!

واستوجف أديب:

- كلا عضيه أنت.

فقلت بتحد وأنا أغيض ريقي:

- حسنا سأفعل. أنا لا أخاف. إن قتلني أستشهد وأذهب إلى الجنة!

وخجل أديب من إحجامه وتقدم وعيناه تلتمعان، وهو يكـز علـى أسـنانه، ويصيح بغضب يدافع به خوفه:

- سأعضه.. اقتحموا بيتنا، وهشموا طائراتي الورقية التي قضيت وقتا طويلا في صنعها وصفعوني!

- وجنح إلى ذراع الجندي الذي شده لما حدث، وفل عزمه، وهوت من يـده الحربة. وعبرت باب الحرم راكضة بأقصى سرعتي، ووقفت ناحيتـه وصـدري يعلو وينخفض، وأنا أنظر إلى الجندي يجدل أديب أرضا محاولا السيطرة عليـه، وأديب يلدمه بيديه ويركله برجليه. فالتقطت حجرا ودلفت نحوهما، وقذفت الجندي به فأصبت ساقه فشتم مبرطما هادرا محتفزا للقبض علي، فركضت وأنـا أهتـف

بأديب أن يسرع بالفرار. وما لبثنا، نحن الاثنان، أن أطلقنا ساقينا للريح مرفرفـي القلب متضاحكين. ولم يجرؤ الجندي على ترك مركزه ومتابعتنا إلا قليلا، وعـاد بخفي حنين، وأنا ألتفت وأقول:

- دعه الآن يعرج في مشيته!

ووصلنا ساحة الحرم. ومن مكاننا المشرف طالعنا منظرا شاملا. ما هناك؟ كأنه يوم الحشر. ألوف من الرجال من مختلف الأعمار حشدوا في الساحة الكبيرة، وهالني أن يكون هذا الجمع الغفير ذاهبا للاعتقال كما اعتقدت أول وهلة. كنا قـد اختلطنا بالجموع في غفلة من الحراس المنتشرين في كل مكان يبـذلون جهـدهم لفرض النظام على هذا الحشد الضخم، وغير بعيد كان جندي بريطـاني ضـخم الجثة يحاول إرهاب رجل عربي أصغر حجما بدا عصيا على الانضباط، فاقترب منه حتى كاد جبيناهما يتلامسان، وأخذ يحملق في عينيه من عل بعينين مـدورتين مفتوحتين وسعهما وهو يصرخ في وجهه بشراسة، ولا أدري لماذا استدعى هـذا التصرف الذي اعتبرته أحمق للغاية إلى مخيلتي مشهد قطين يتنازعان فـضحكت. أما وسط الساحة فكانت تربض دبابة يلفها الغموض، والرجـال يجبـرون علـى المرور أمامها فرادا. وبعد أن يتموا هذا الطقس الغريب كانوا إما أن يتوجهوا نحو مخارج الحرم أو يفرزون كأنهم جزل معد للحريق، وقد تغادى حـولهم الجنـود مدججين بالسلاح، وشعرت بالرهبة وتوجست شراً مما يحدث.

- هل صاروا يعتقلون الأطفال أيضاً هذه الأيام؟ هتف أحد الرجال حين رآنا.

- ماذا تفعلان هنا أيها الصغيران؟ عودا إلى منزلكما، فلـيس هـذا بالوقـت المناسب لتواجدكما هنا؛ قال آخر.

- لقد اعتقلوا أبي وأخي، وجئنا هنا لنراهما، ولن نذهب قبل أن نعرف مـاذا سيحل بهما؛ رد أديب بلهجة مصممة.

وتعاطف الرجال معنا، وخفف وجودنا التوتر الذي يحسون به، كأنما عنايتهم بأمرنا تكسبهم عزما وثقة بالنفس.

وتأوه رجل كهل أهمل لحيته الشائبة فلم يحلقها منذ أيام:

- ما يدري إلا الله مقيلنا يا ولدي، ليس لنا سواه موئلا وإليه ننيب.

وشجعتني لهجته على سؤاله:

- ما هذا الذي يجري عند الدبابة يا عم؟

فأجابني هامسا:

- هناك خائن مختف في الدبابة، وهو يدلّ على الثوار.

- هل الذين يفرزون من الثوار؟

- نعم يا بنية، إنهم المجاهدون الثائرون لكرامة فلسطين العربية يتآمر عليهـا المتآمرون باسم الانتداب؛ أجابني بصوت خفيض قلق.

وسألته متأثرة:

- هل حقا يعذبونهم يا عم؟

- يا بنية! ليس بعد الكفر ذنب.

- إنهم يدنسون الحرم الشريف، هؤلاء الأبالسة!

تناهى إلى سمعي صوت أجش ناقم مرير، صدر من مكان ما خلفي وسـط الرجال. وتقدمت واجفة القلب، أطّلع وأديب على الجموع من حيث وقفنـا علـى مرتفع نذير بأعيننا باحثين عن والدي وعبد الرحمن فلم نجدهما. لكننـي لمحـت شخصا خلت إنني أعرفه، وأحددت إليه النظر فالتقت عينانا. إنه هو لا شك! فرغم أنه يطيل لحيته الآن، ويبدو مختلفا، إلاّ أنني لا يمكن أن أنسى عينيه. إنه الـشاب الذي ألجأته إلى دارنا بعد مقتل رفيقه في ذلك اليوم أول حاولنا بالقدس. وأطـال النظر إلي محاولا أن يتذكر أين ومتى رآني، وبدا كأنه يستغرب وجودي في هذا المكان، ثم برقت عيناه على حين غرة، ولاح على شفتيه طيف ابتـسامة قبـل أن يختفي بين الجموع، ورحت أتساءل إن كان قد عرفني. ثم ظهر من جديد، كـان يساق في هذه المرة إلى الدبابة، وخلفه مباشرة مشى الرجل الـذي كنـت أبادلـه الحديث. فأصابني الفزع وصمت لا تطرف لي عين.

- سلمى! انظري. لقد جاء دور ذلك الرجل الذي كان يحادثنا؛ هتـف أديـب وهو يشير بإصبعه نحوه.

- وهل ترى الشاب الذي يسبقه مباشرة؟

- نعم. من هو؟

- إنه الشخص الذي أنجدته يوم فتشوا دارنا، ورأيت أنت رفيقه الذي استشهد ممددا في الحارة. لقد حدثتك عنه! همست في أذن أديب وعيناي معلقتان بالشاب.

- حقا! يا إلهي سيعتقلونه الآن، همس أديب منفعلا. لكن الـشاب نجـا مـن الاعتقال، فلم يتعرفوا عليه، وقبل أن يمضي خارجا من الساحة بخطوات سـريعة التفت ونظر نحونا. أما الرجل الكهل فكان أسوأ حظا. لقـد أفـرز. كـان مـن المغضوب عليهم. من السنابل التي ترفع رؤوسها لتتحدى فتهوي تحـت منجـل الحصاد! واغرورقت عيناي بالدموع، وعصر الألم فؤادي، وهتفت:

- إن اعتقلوا والدي أو أخي فسأفعل شيئا جنونيا!

وسألني أديب دهشا:

- وماذا تفعلين؟

وصمت برهة ثم أجبت بيأس:

- والله لست أدري.

- دعينا نقترب حيث تقف الدبابة فلعلنا نرى بابا وأخي.

وشرعنا نشق طريقنا بين الدفاع حتى كدنا نختنـق. وإذا بـشخص يمـسك بعضدي:

- سلمى! ماذا تفعلين هنا؟

وتلفت، إنه عمي أبو أحمد. وانهمرت دموعي.

- بابا وأخي اعتقلا!

- لا تخشي عليهما بأسا، لقد أفرج عنهما. فما أتى بكما إلى هنـا؟ يجـب أن تعودا حالا. هلما معي!

وأمسك كلا منا بيد، وأحسسنا بأمان ونحن في موئل درع حـصينة. ولكننـا استوهلنا العودة حيث يقف الحارس، وخشينا مغبة ما فعلنا، وطفق أحدنا يستـشف ملامح الآخر ويزمزم بالكلام ويشير بحركات مضحكة، ونحن نحث السير لنتـابع خطوات أبي أحمد الواسعة، وقلبانا يرجفان كلما اقتربت المسافة. ولكـن لحـسن حظنا كان الجندي قد تغير، فسرنا بأمان ونحن نتنفس الصعداء.

* * *